

دراسات عن مقامة ابن خلدون

المؤسسة لسائر المعاصرين

للأستاذ د. خشية

عندما فرغت في العام الماضي من قراءة الجزء الأول من كتاب الأستاذ الجليل ساطع المصري (أبو خلدون) عن مقامة (ابن خلدون) أيقنت أن هذا الكتاب الثمين، وأيقنت أن ابن خلدون جدير بأن يوليه مفكرونا وكتبةنا عنايتهم، كما يوليه على الأقل، وإن كان واجبنا يقتضي أن نسبقهم إلى ذلك ونبزم فيه... فليس كثيراً على ابن خلدون أن يكتب فيه الدكتور طه حسين رسالة يكسرها على فلسفة الاجتماعية، ثم يأتي الأستاذ عبد الله عنان فينقل إلى العربية تلك الرسالة، ويزيد فيضع كتاباً جديداً عن حياة ابن خلدون وتراثه الفكري، ثم يتفرغ الأستاذ أبو خلدون لوضع مؤلفه شامل عن مقامة ابن خلدون فيملاً أيدينا ووعينا ببحث عجيب مستفيض عن هذا الرجل المبصر الذي يعتبر بحق نابتة الأمة العربية في علم الاجتماع،

عندهم، وباعدت بينهم، ومنعته الإلتزام في مثل هذا الجمع، حوادث الحرب وما قبل الحرب من الثورة والجهاد، وممارسة الخطوب الشداد، فما كان أعظم عبطي، وما كان أسعد جدتي أن كانت زورتي المدينة الكريمة تقرونه بإجتمع الشمع، وانتظام الجمع. تكلم سديقتنا المجاهد محمد يعقوب النصين وتكلم عدة من كرام الشبان فأفاضوا ما شاء، أديهم وكرمهم محيين المجاهد الكريم، والزعيم الاقتصادي أحمد حلي باشا والضيف المصري الذي لا يرى نفسه في فلسطين ذميقاً، ولا يمد القاهرة أولى به من الرملة. وتكلمت على وجوه يعرفها قلبي وإن لم تشهد لها عيني مستمداً من تاريخنا وماثرنا وأخلاقنا وعزائمنا ما يشبتنا في هذه الحن، ويربط على قلوبنا في هذه الفتن، ويجمع الكرامة في هذه المصائب، ويؤلف المزائم لهذه النوائب، وأقويت إليهم من تاريخنا وأخلاقنا وأواصرنا مقاليد المستقبل الكريم،

وقد أصدر الأستاذ ساطع بك الجزء الثاني من بحثه القيم عن المقدمة هذا العام (١٩٤٤)، وما كدنا نراه حتى أكبنا عليه نكله، بل ندرسه، في شغف وفي شوق وفي إعجاب

تناول المؤلف في الجزء الأول موقف ابن خلدون من الكهانة والنجامة والسحر ومشيمة الله، والأدوار التي لعبتها هذه الأشياء في التاريخ؛ ثم نبذة شاملة عن حياة ابن خلدون لم يقتصر فيها على ما كتبه المؤرخ عن نفسه في الرسالة المحفوظة بدار الكتب المصرية، والتي تنقص تاريخ فترة طويلة من حياته تبلغ إحدى عشرة سنة إلى وفاته؛ ثم تاريخ كتابة المقدمة وشعور ابن خلدون بأنه إنما استحدث في علم التاريخ حدثاً جديداً لم يسبقه إليه أحد، وانتقل إلى ما حدث من إهمال المؤرخين العرب للأسس التي وضعها ابن خلدون في مقدمته لعلم التاريخ والاجتماع وما كان من تنبه المؤرخين العثمانيين إليها آخر الأمر، وانتفاعهم بها في وضع توارخهم، وذلك من نعمنا صاحب التاريخ المروف إلى عبد الرحمن شرف المؤرخ الرسمي الأخير، مما أدى إلى ترجمة المقدمة إلى التركية قبل ترجمتها إلى أية لغة أوربية بنحو من قرن كامل، ثم تناول بعد ذلك لغة المقدمة فشرح نظرية النقد التفسيري شرحاً لم يسبقه إليه أحد في العربية، وفسر لنا

الوضاء الذي ينسب في أعقاب هذه الظلمات، ويتنفس من وراء تلك الكريات. ومن وراء كلامي ما يضيق عنه الكلام، وتتلطفه عن الوجدان الأفهام. لقد كانت ساعة جليلة لا تزال تضيء في جوانحي، وتشتمل في سرايري.

أصبحت إلى مطار اللد في صحبة إخواني الكرام أتمثل بقول القائل:

ونكرم جارنا ما دام فينا ونقيم الكرامة حيث مالا وأنشد قول أبي الطيب في طريقه إلى مصر:

إذا السحاب زفته الريح مرتفعاً

فلا عدداً الرملة البيضاء من بلد
عرجنا على بنك الأمة العربية في اللد قلبنا حتى سرنا إلى
المطار وقد قصصت قصته من قبل في حديث عن الطيران من
اللد إلى القاهرة هجر الراهب عزائم

في أخلاق الشعوب ودياناتها ، كما ألمنا إلى أوجه الشبه بين ما قرره إخوان الصفاء في رسائلهم عن الزهد ودرجات الناس ، وعلاقات أولياء الله وكيف آتاهم الله القدرة على إدراك الغيب ومعرفة بواطن الأمور ، وما ذهب إليه ابن خلدون في هذه الأمور جميعاً بما يشبه أن يكون نقلاً أو اقتباساً عن إخوان الصفاء . وكذلك ما كتبه ابن خلدون عن النجامة فهو يشبه إن لم يكن هو ، ما قرره إخوان الصفاء من قبل ولم يكن يسمدنا أن يتنبه إلى هذه الملاحظة الهامة كتابنا الأجلاء الذين ألقوا عن ابن خلدون . وقد تناول الأستاذ المصري بالتفصيل ما يذهب إليه بعض العلماء من شمولية ابن خلدون وحملته على العرب . ولسنا بمرض مناقشة آرائه الآن ، إلا أننا ننبه هنا إلى أن ابن خلدون كان متأثراً في هذه الحملة بما قرأ في رسائل إخوان الصفاء وفي الرسالة الحيوانية عصادق لهذا كله

وقبل أن نتقل إلى الكلام عن الجزء الثاني لا نرى بدا من التنويه بما أفاض فيه الأستاذ المصري عن نظرية القصية واتصالها بالاجتماع السياسي ، ومناقشته لآراء المؤلفين الأجانب الذين عنوانوا ابن خلدون بصدده النظرية . إنه فصل يستحق الأستاذ عليه ألف تهنئة

أما الجزء الثاني من هذه الدراسات العميقة القيمة عن ابن خلدون ، فلسنا نمدو الحق إذا قررنا أنه خير ما قرأناه هذا العام (١٩٤٤) في المكتبة العربية من نوعه ، وإن كنا لا نطيق تأجيل عتبنا على الأستاذ للجهة التي ناقش بها آراء الدكتور طه حسين وخصوصاً تكراره ألفاظ : « ادعى فلان ، وادعاء فلان ، ويدعى فلان ، وحظ أقوال فلان من الحق والصواب ... ثم التعريض بمعلومات الدكتور العلمية حينما كان يكتب رسالته » إن هذا كله يثبت أن الأستاذ الجليل ساطع المصري كان متحمساً وهو يكتب مؤلفه الخالد ، فأوقعته حماسته فيما لا يناسب سجايا العلماء ولا سيما إن كانوا من طراز الأستاذ المصري ولندع ذلك الآن ...

تناول الجزء الثاني الكلام عن التطور التدريجي في الطبيعة والمجتمعات وسبق ابن خلدون إلى إدراك مذهب النشوء والارتقاء قبل داروين بأحباب طويلة ، كما تناول الكلام عن المذاهب الأساسية في علم الاجتماع وما استحدثت في هذا العلم من نظريات شتى ، وما سبق إليه ابن خلدون من الإلماع إلى هذه النظريات ،

بعض العبارات التي تعيننا على فهم أسلوب ابن خلدون ومقاصده من كثير من العبارات التي خرج بها على الماني المألوفة لها مما يحدث التباساً في مسيرته إلى أغراضه إن لم نلم بها قبل قراءة المقدمة ، وهذا فضل لم يبدأ من تسجيله للأستاذ ساطع في هذه الكلمة السريعة الموجزة . ثم يستطرد بعد هذا فجأة إلى نسب ابن خلدون ، ويناقش الدكتور طه حسين فيما ذهب إليه من شك ابن خلدون نفسه في نسبه ، كما يناقش الأستاذ عنان أيضاً في هذه المسئلة . ونرجو أن تكون لنا عودة بصدده هذه المناقشات وفي القسم الثاني من الجزء الأول يتناول الأستاذ الجليل مكانة المقدمة في تاريخ « فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع » ومحدثنا عن فيكو وآرائه ، كما يحدثنا عن مونتسكيو ونظرياته ، مقارناً بينهما وبين ابن خلدون ، ومكانة ابن خلدون من علم الاجتماع ونظرة علماء أوروبا إلى نابغة العرب . والأستاذ ساطع يشير إعجاب القارىء إلى أقصى حد بسمة إطلاعه وجهوده العميقة الموقفة التي بذلها في هذا القسم من أقسام الكتاب ، فهو يلفتك إلى عشرات وعشرات من المراجع الهامة التي يضع بين يديك خلاصتها ، ويشير فيك فضول الاطلاع بالرجوع إليها ، فمن أروع ما أثبتته هنا خلاصة ما كتبه (روبرت فانث) عن ابن خلدون وتفضيله على جميع أنداده ممن كتبوا في فلسفة التاريخ . ولا يفوتنا ونحن نكتب هذه اللوحة ، أن نمارض بشدة ما أورده « فيكو » من أن العبرانيين ، ثم الكلدان ، ثم الأسكيت ، ثم الفينيقيين أقدم جميعاً من المصريين لقد بطلت هذه النظرية أتم البطلان ، وأثبتت مجموعة البدارى الأثرية التي يرجع عهدها إلى ما قبل خمسة عشر ألف سنة ، كما أثبتت مئات الشواهد التاريخية الأخرى أن المصريين هم أقدم أمة على وجه الأرض ويتناول القسم الثالث من الجزء الأول (آراء ابن خلدون ونظرياته) فيحدثنا عن موضوع التاريخ ومهمة المؤرخ ، وطبيعة الاجتماع ومنشأ الحكم ، والتقسيم الاجتماعي والتقليد وطبائع الأمم وسجايهاها ، ونظرية العصبية والخط والكتابة . وقد ذكرنا معظم هذه الفصول برأى لنا قديم نشرناه^(١) عن تلمذة ابن خلدون لإخوان الصفاء في رسائلهم المشهورة ، وانتفاعه بما جاء في هذه الرسائل ، ولا سيما عن تأثر طبائع الأمم وسجايهاها ببيئة الإقليم ومناخه وهوائه ومحصولاته وأثر الجوع والحصب